أمير تركى فى قصر البابا

ظل أهل روما منذ استولى محمد الفاتح على القسطنطينية خائفين ،يتوقعون بين لحظة وأخرى أن يتصل بهم الشر . لقد وضع المسلمون أقدامهم فى أوربا ووطدوها بالاستيلاء على عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، فأحدث ذلك رجة فى تلك المدينة العظيمة التى كانت عاصمة الامبراطورية الرومانية فيما مضى ، والتى كان يسيطر عليها عندئذ البابا وريث تلك الإمبراطورية فى سلطته الزمنية التى تشمل إقليما من إيطاليا ولكنها تمتد بسلطته الدينية لتظل العالم المسيحى بأسره .

دعا البابا أمراء المسيحيين للاتحاد والتآلف كى يقاوموا الخطر المحيق بهم ، ولكن المطامع كانت تحول دون ذلك . وظل الخطر يزداد باستيلاء السلطان التركى المسلم على أرض بعد أرض حتى وضع قدمه فى إيطاليا نفسها حين استولى على أوترانتو ، ولكنه لم يتقدم بعد ذلك .

وتتابعت السنون ولعبت المطامع دورها ، فوجد الفاتح حتى بين الأمراء المسيحيين أنصاراً وحلفاء ، وصارت السلطنة العثمانية التى تهدد المسيحية الأوربية لعبة سياسية تتخذها الدول الأوربية أداة للتغلب على خصومها ، وكانت روما تموج بالاشاعات والمتنبئين الذين يؤثرون فى عقول السذج . وكانت من أكثر النبوءات انتشاراً فى ذلك العهد نبوءة المتشائمين الذين يقولون إن سلطان الترك سيا خل روما .

وفى مساء يوم السبت ١٣ مارس سنة ١٤٨٩ تحققت هذه النبوءة . إذ عرف شعب روما بأسره أن سلطان الأتراك قد جاء إلى روما ، ولكنه جاء فى مناسبة سعيدة ، فهو يقابل مقابلة الضيف ، ولكنه أقرب ما يكون إلى الأسير . وهرع الناس إلى باب بورتيزى الذى سيقبل منه موكبه حين يدخل المدينة المقدسة قادماً إليها بالبحر من ميناء شيفيتافكيا . وذهبت الوفود من

رجال بلاط الفاتيكان على رأسهم جمع من الكرادلة لاستقبال السلطان التركى . حتى إذا دخل المدينة بموكبه يحف به رجاله تلقوه بالترحاب وأبلغوه تحية الحبر الكبير البابا إنوسنزو الثامن ، فتقبل هذه التحية فى هدوء وركب جواد البابا الأشهب وسار صامتا مربد الوجه وحوله المستقبلون . واحتشد الشعب يهتف لهذا السلطان التركى ضيف البابا وكان هو يقابل هذا الهتاف فى كثير من الوقار ، لا تظهر على وجهه علائم الارتياح والغبطة ولا يحفل بهذا الهتاف إلا قليلا . وسار موكبه مخترقاً إيزولا دى سان بارتولوميو ثم ساحة جوديا ثم كامبودى فيورى ثم إلى قصر البابا حيث نزل فى الجناح المعد للضيوف من الملوك . وفى اليوم التالى استقبله البابا استقبالا خاصا ، وقد غير فى المراسيم من أجله ، فلم يفرض عليه أن يقبل قدم البابا كما كان يفعل الأمراء المسيحيون ، بل تقدم السلطان وقبل كتف البابا اليسرى فرحب به البابا كثيراً .

والحق أن هذا الأمير المسلم لم يكن سلطاناً ، بل كان ثانى أنجال محمد الفاتح ، ثم ادعى بعد وفاة أبيه أنه أحق بالسلطنة من أخيه الأكبر بايزيد ؛ لأنه ، على قول علماء الفقه والملتفين حوله من الروم ، ولد فى عهد سلطنة أبيه فهو ابن سلطان ، فى حين أن أخاه الأكبر بايزيد ولد قبل أن يتولى أبوه السلطنة . وكان التنافس بين الأخوين كبيراً حتى فى حياة والدهما . ولعل هذا الأمير الذى يدعى الأمير جم كان يشعر بشئ من الزهو ؛ لأن أمه أميرة سربية تزوجها محمد الفاتح ، على حين كانت أم بايزيد من الجوارى . وكان الأمير حتى فى صغر سنه يجد أنصاراً من رجال أبيه يعجبون بشجاعته ومايظهر عليه من مخايل النجابة والحكمة وحسن تصريف الأمور

حتى إذا مات محمد الفاتح فجأة وهو لا يزال فى عنفوان رجولته وتولى بايزيد الحكم إذ هرع إلى القسطنطينية ، نازعه الأمير جم هذا الأمر ، وتألف جيشان ، وقام النزاع عنيفاً بين الأخوين ، ولكن حزم بايزيد قضى على الفتنة . واضطر الأمير جم أوچم سلطان ، كما كانوا يلقبونه ، أن يتقهقر إلى أطراف آسيا الصغرى ؛ وأرسل إلى الأستاذ الأكبر للفرسان الصليبيين فى جزيرة رودس مستنجداً به وبفرسانه . ففكر الفرسان وتناقشوا طويلا فى هذا الأمر وقرروا أخيراً أن يعاونوه فى الالتجاء إليهم ؛ إذ رأوا أن ثورته على أخيه قد يكون فيها بعض الفائدة لهم وللأمم المسيحية ، فكاتبوه يستدعونه إلى جزيرتهم .

وأرسلوا سفينة من سفنهم لتأتى به معززاً مكرما مع خاصته من الرجال .

ولم يكن أكبر الرسل الذين أرسلهم الأمير جم مطمئنا كل الاطمئنان إلى هذه الوعود ، ولكن الأمير لم يلتفت إلى رأيه وركب السفينة قاصداً إلى جزيرة رودس .

استقبل الأمير عند نزوله إلى الجزيرة بحفاوة كبيرة ؛ فقد تقدم الفرسان لاستقباله بمجرد أن وضع قدميه على البر ، فى حين أخذت القلاع تطلق المدافع تحية له والموسيقى تعزف مرحبة به . وتقدم الأمير فى وقار يحيط به أعوانه المخلصون ورد التحية لمندوبى الأستاذ الأعظم ثم امتطى فرساً وسار بموكبه وسط الجماهير التى كانت تهتف له بين طلقات المدافع . حتى إذا ماوصل إلى الساحة الكبرى للمدينة وجد الأستاذ الأعظم فى انتظاره . فنزل الأمير جم وتقدم إليه وحياه على الطريقة التركية بأن يرفع سبابته إلى فمه ثلاث مرات ، ورد الأستاذ الأعظم إليه التحية على طريقة الأمراء المسيحيين ثم تصافحا ، وسارا معا نحو القصر الذى خصص للأمير وهما يتحادثان ، بوساطة المترجم . فاذا وصلا إلى القصر استأذن الأستاذ الأعظم تاركا الأمير ليستريح من وعثاء السفر ، فدخل الأمير القصر .

فى ذلك اليوم افتتحت فى حياة الأمير صفحة جديدة لم يكن هذا الأمير ليقدرها . فقد جاء يطلب النجدة ، وظن أن الأمراء المسيحيين سيعاونونه على اعتلاء العرش ، وقد بذل له الأستاذ الأعظم الوعود نيابة عن الجهات التى كان متصلا بها من ملوك ورؤساء دينيين . وقد رأى ورأى معه مستشاروه من الفرسان أن من الخير أن ينقل هذا الضيف إلى فرنسا ، حيث يكون من اليسير الاحتفاظ به ، فأخبروه بذلك ، وأطمعوه فى مساعدة ملك فرنسا لويس الحادى عشر له ، وأنه سيكون بمأمن من أخيه ؛ فهم يخشون غضب السلطان بايزيد ومهاجمته جزيرتهم لإيوائهم أخاه الثائر . فلما سمع الأمير ذلك رحب بالفكرة ، وطلب الاسراع فى تنفيذها ، وعلى ذلك جهزت له السفينة التى تسير به إلى بلاد المغرب ، وأقيمت له مأدبة الوداع .

ويصف الواصفون أن الأمير جم جلس إلى المائدة التى جلس إليها الأستاذ الأعظم ، وكان يجد مشقة فى جلسته على الكراسى إذ لم يعتد هذا الجلوس أمام

مائدة حين يتناول طعامه ؛ فعادته فى بلاده أن يجلس على الأرض بعد أن تفرش له الوسائد ، ولذلك كان منحنياً فى جلسته ورأسه مطأطئ على صحاف الطعام . وكان بين وقت وآخر يسترق النظر إلى الأستاذ الأعظم للفرسان ليرى طريقته فى الأكل . وفى أثناء الطعام كانت الموسيقى تعزف ألحاناً أوربية ، وغنى أحد الانجليز لحناً أوربيا ، ولكن الأمير كان يحد هذه الألحان وتألفها غريباً عليه ، فأظهر من العجب أكثر مما أظهر من الاعجاب . ولحظ الأستاذ الأعظم ذلك فأمر بأن يؤتى بعبد تركى ، فجئ به وغنى أناشيد بلاده مما أدخل السرور فى نفس الأمير وظهر على محياه شئ من الابتسام .

فلما انتهى الطعام تقدم الأمير وشكر الأستاذ الأعظم وشكر سائر الفرسان الحاضرين لما أظهروه من حفاوة ، وأعلن أنه لو استرد ملكه فسيعرف كيف يعبر عن شعوره بما هو فوق الشكر . وقدم إلى الأستاذ وثيقة عليها توقيعه وخاتمه يعلن فيها أنه يتعهد بالمحافظة على سلم دائم مع الفرسان بمجرد استرداد عرش أبيه ، وأن يكون بينهم وبين تركيا حرية التجارة ، دون أن تفرض أية ضريبة ، وأن يسلم إلى الأستاذ فى كل سنة ثلاثمائة من العبيد المسيحيين يتصرف فيهم كيف يشاء . وأخيراً وعد بأن يدفع لهم مائة وخمسين ألف دينار من الذهب للنفقات التى سببها لهم .

كان فرح الفرسان عظيما لهذه المعاهدة ، على أنها لم تكن الوثيقة الوحيدة التى استخلصوها من الأمير جم ؛ فقد قطع على نفسه عهداً بأن يخضع لرأى الأستاذ الأعظم ومشورته فى تصرفاته المقبلة كما وكل إليه حرية التفاوض مع أخيه لصالحه

وفى اليوم التالى لهذه الليلة الحافلة التى كرم فيها الأمير جم ، نزل هذا الأمير إلى البحر مع أتباعه فى سفينة الفرسان قاصداً أرض أوربا .

لم يضع الأستاذ الأعظم الوقت سدى . ففى اليوم التالى كانت سفينة رسله تمخر عباب الماء قاصدة السلطان بايزيد ؛ ليخبروه بما كان من أمر أخيه ، ويعتذروا إليه بأنه إنما قبل فى حدود ما يفرضه الواجب الانسانى ، وأن جزيرة رودس ملجأ مفتوح لكل من يلوذ به ، وأنه قبل المقابلة اللائقة بأمير تركى من البيت الذى نشأ فيه . وجرت المفاوضات بين هؤلاء الرسل

ورجال السلطان ، وانتهت بعقد معاهدة بينهما كانت فى مصلحة الحاكمين فى الجزيرة ؛ فقد نصت على وقف الأعمال العدائية بين الفريقين المتعاقدين واستئناف التجارة بينهما ، وأن تكون الرسوم التجارية كالمألوف ، وأن يرفع أى خلاف إلى المحاكم المختصة ، وأن تحمى سفن كل فريق سفن الفريق الآخر ، وأن يعاد الذين يهربون من الرقيق إلى أصحابهم ماداموا لم يغيروا من دينهم وألا تدفع عنهم الفدية .

وعاد الرسل ومعهم رسول تركى قابل الأستاذ الأعظم للفرسان ، واتفق معه على أن السلطان يتعهد بأن يدفع فى أغسطس من كل سنة مبلغ خمسة وأربعين ألف دينار دوقى من عملة فينيسيا ، على أن يحتفظ الأستاذ الأعظم بحراسة الأمير جم ويحول دون أن يكون هذا الأمير خطراً على السلام القائم بينهما .

وهكذا أقدم الأستاذ الأعظم على أول خطوة فى سبيل الغدر بذلك الأمير الذى استجار به . ولكن هل هذا العمل كان بعيداً عن روح العصر ؟

سارت السفينة تحمل الأمير جم وفى قلبه الآمال الكبار إلى ساحل أوربا وهى تقترب من مسينا حيث رأى الأمير تلك الجزيرة المحترقة ، وهى جبل يكتنفه الدخان من الصباح إلى المساء ، فاذا جن الليل صارت جبلا من النار .

كانت السفينة فى سيرها تتجنب سفن الدول الأوربية الأخرى لاسيما دولة البندقية ؛ إذ أن هذه الدول التى سمعت بحكاية هذا الأمير ، كانت تحاول الاستيلاء على شخصه طمعاً فيما يجره ذلك من فوائد مادية . وأخيراً وصلت السفينة إلى أرض سافوا حيث أنزل الأمير إلى مدينة نيس ، بحدائقها الغناء وغانياتها الحسان ، كما يقول المؤرخ التركى . وهنالك عاش جم فى انتظار الإذن بالالتجاء إلى ملك فرنسا كى يعاونه على استرداد حقوقه وملكه .

ولم يكن الأمير جم ليعلم ماقام حوله بين ملوك أوربا وأمرائها من تنافس مقنع ثم سافر للاستيلاء على شخصه ، يزعم كل منهم فى بادئ الأمر أنه يريد خير المسيحية ، ثم لا يلبث القناع أن يزول وتتبين روح الجشع فى النفوس .

فهذا ملك نابولى يبدى موافقته على مسلك الأستاذ الأعظم ، وهذا البابا يثنى على سلوكه ، وهذا ماتياس كورفن ملك المجر لمهدد من الأتراك يؤيد ما فعله الأستاذ الأعظم .

وظل الأمير مقيما فى نيس أربعة أشهر ، ثم انتشر فيها وباء مخيف . فرئى أن ينقل منها ، وكان حراسه يفهمونه بأنهم ينفذون رغبته . ولكن من المؤكد أنه بدأ فى ذلك الوقت يشعر بما يدبره له الحراس وأنه ليس إلا سجينهم . ولقد سار موكبه وئيداً إلى شامبرى حيث التقى بدوق سافوا الذى وعده بالمعونة ، ولعله كان جادا فى وعده ، ولذلك أسرع به حراسه إلى الأراضى الفرنسية .

وقبل أن يدخل تلك الأراضى وصلته رسالة من أخيه السلطان بايزيد على يد رسول كان بايزيد قد أرسله إلى ملك فرنسا ، وفى هذه الرسالة يعاتب أخاه على مافعله من الخروج عليه ، ويتمنى له السعادة فى منفاه . وكان الرسول يرغب فى مقابلة الأمير جم ، غير أن الحراس عارضوا فى ذلك معارضة شديدة وظهر للأمير جم تماماً أنه سجين ، وأنه لا سبيل لتحقيق مطامعه إلا بالافلات من حراسه ، فأخذ منذ ذلك الوقت يبدى الحذر فى تدبير أموره واستسلامه لهؤلاء الحراس .

أما حارسوه فأحسوا من جهتهم ريبة الأمير التركى بهم . وحدث أن توفى الملك لويس الحادى عشر الذى كان متولياً عرش فرنسا فى ذلك الوقت ، فخشوا أن ينتهز الأمير فرصة ما قد يحدث من اضطراب فى الأمور فى فترة تغير الجالس على العرش ، فقرروا أن يفصلوا بين الأمير وبطانته من الأتراك . وعلى ذلك أصبح الأمير ذات يوم فاذا به يجد مقره محاطاً بنحو ثمانمائة من الفرسان المسلحين الذين ينتزعون بالقوة تسعة وعشرين من رجاله الأتراك . واحتج الأمير احتجاجاً شديداً ، ولكن حراسه أجابوه بأنهم إنما يعملون ما فى مصلحته وما تقتضيه الأحوال ، وأن هؤلاء الرجال من بطانته سيعاملون خير معاملة ، وأقسموا له على ذلك بالانجيل .

ونقل الأمير مع من بقى له من رجاله إلى قصر حصين فى بلدة روشنفور ، وهنالك كان يزوره بعض النبلاء من حكام البلدان المجاورة . ومن الذين كانوا يزورونه وألفهم الكونت دى ساسناج ، وكانت له ابنة جميلة

تعرفت إلى الأمير التركى فمال إليها وأحبها ، وقد وضع المؤلفون حول ذلك الحب أكثر من قصة وأكثر من قصيدة .

وكانت الأنظار كلها فى ذلك الوقت متجهة إلى ذلك الأمير التركى الأسير على أن الأمير كان يفكر فى تدبير ما يرى فيه مصلحته ؛ فقد اتخذ عن طريق أتباعه جواسيس من الايطاليين ينقلون إليه الأخبار التى تهمه ويسعون للاتصال بأعوانه ، وكانت أمه قد ذهبت إلى قايتباى سلطان مصر تستنجد به كى يساعد ابنها على الخلاص من أيدى الفرنج ، فأخذ السلطان وهو مناوئ للعثمانيين يسعى لاستخلاص الأمير وإجلاسه على عرش آل عثمان كى يكون صديقاً بدلا من عدو .

وكان أخوه بايزيد فى الوقت نفسه يتوجس خوفاً من أن يفلت أخوه من يد ساجنيه ، فأخذ يتصل بأمراء الفرنج ويتودد إليهم محاولا أن يقنعهم بالاحتفاظ بأخيه وباذلاً لهم المال إغراء لهم بأن يظلوا على علاقاتهم الحسنة معه . وقد سبق أن قلنا إنه أرسل إلى لويس الحادى عشر رسولا من كبار رجاله اسمه حسين بك لكى يعقد معه اتفاقاً ، وكان الرسول يحمل الهدايا والطرف النفيسة . ولكن الملك لويس كان فى أيامه الأخيرة ، مشغولا بمن كان يحيط بهم نفسه من مشعوذين وسحرة لكى يحاول أن يطيل من أيامه المعدودات ، وقد ذهب فى سبيل ذلك إلى أن يشرب الذهب المذاب ، وقيل إنه شرب من دماء الأطفال ، فلم يكن مستعدا فى ذاك الوقت إلى أن يعقد أواصر الاتصال مع أمير غير مؤمن وهو على حافة القبر . وعاد حسين بك دون أن يصل إلى نتيجة وهو الذى حمل رسالة السلطان بايزيد إلى أخيه جم ، وحاول أن يقابل الأمير ولكن الحراس حالوا دون أن يوفق فى هذه المهمة أيضاً .

ورأى السجانون أن الوقت حان للانتقال بسجينهم إلى جهة أخرى ، إذ خافوا من هذه الاتصالات التى صار الأمير مركزها بعد أن مكث طويلا فى تلك الجهة ، فقرروا أن ينقلوه إلى أحد حصونهم فى مقاطعة أوفرن ودهبوا به إلى حصن حصين تقوم إلى جانبه أربعة أبراج ضخمة ، وهذا الحصن كان ملكا لأخى الأستاذ الأعظم ، ثم عادوا فنقلوه إلى جهة أخرى إلى أن يتيسر لهم أن يقابلوا بأسيرهم ملك فرنسا الجديد .

وكان الأستاذ الأعظم غير مكتف باحتجاز جم لصالح خزينته أو لصالح

المسيحية كما يزعم ، بل بدأ يتخذه سلاحاً سياسيا ينال به المراتب ، وهذا ما فعله مع البابا أنوسنزو الثامن حين التمس منه أن يرقى أخاه إلى مرتبة كردنال ، فقد كان البابا يعلم أنه يلوح بتسليمه الأمير التركى فى نظير ذلك ، فنال أخوه هذه المرتبة ؛ ولكن الأستاذ الأعظم ظل محتفظاً بأسيره فى أرض فرنسا .

ودخل الأستاذ الأعظم فى الوقت نفسه فى مفاوضة مع فرانتى ملك نابولى الذى رغب إليه فى أن يسلمه الأمير التركى ، ولكنه اعتذر بأنه خاضع للبابا . وكذلك كان يتقبل المنح والهدايا من قايتباى سلطان مصر ثم يلتمس الأعذار عن تحقيق رغبته . وأخيراً تمكن البابا بعد مفاوضات طويلة مع الأستاذ الأعظم من أن يصل إلى ما يشبه الاتفاق على أنه لصالح المسيحية جمعاء يجب أن ينقل الأمير إلى إيطاليا ويكون فى كنف قداسة البابا والكنيسة حيث توضع تحت تصرفه ضيعة يقيم فيها ، فى حراسة كردينال فرنسى يقسم على أن يحافظ عليه كل المحافظة ، ولايسلم فى الأمير إلا بأمر البابا والمجمع المقدس والأستاذ الأعظم ومجمع فرسانه . وإزاء ذلك رفع البابا مرتبة الأستاذ الأعظم إلى مرتبة كردينال للكنيسة المقدسة ، وتم هذا الاتفاق فى سنة ١٤٨٦ .

ومن الدلائل على أن الأستاذ الأعظم كان يستفيد فائدة كبيرة من اللعب بالورقة التى يحتجزها أنه تلقى من السلطان قايتباى مبلغاً كبيراً من المال لكى يسمح باتصال والدة الأمير به ، فقبل المال وأرسل رسائل مزورة من الأمير إلى والدته يزعم فيها أنه مطلق السراح وأنه باق برغبته . ولكن ظهرت الحقيقة فيما بعد وعرف أنه تقبل المال دون أن يفى بوعده ، وغضب بعض الأمراء المسيحيين لهذه الحال .

وظل الأمير مقيما فى فرنسا وملكها شارل الثامن يمانع فى تسليمه للبابا إلى سنة ١٤٨٩ حيث رأيناه يدخل إلى روما فى موكب حافل كأنه ضيف كريم لا أسير محمول ليكون ألعوبة فى يد ساسة ذلك العصر .

عاش الأمير جم فى كنف البابا أنوسنزو الثامن . ولم يكن البابا فى ذلك الوقت خالياً من المتاعب ، بل الواقع أنه كان يجد عدوا شديد المراس فى شخص جاره فرانتى ملك نابولى الذى كان يجمع جنوده ليستولى على الأراضى التى يحكمها البابا ، وكان يبعث للبابا بالرسائل مهدداً وساخراً ، حتى خيل إلى

الناس فى يناير سنة ١٤٩٠ أن الحرب واقعة لا محالة بين البابا وجاره . وكان البابا يستنجد أمراء إيطاليا لمعاضدته ، وكانت تلك السنة ملبدة بالغيوم بالنسبة للبابا وثقلت وطأة المتاعب عليه حتى أصيب فى أغسطس بالحمى ، وبلغ به المرض حد اليأس . ثم استرد صحته قليلا ، ولكن المرض عاد إليه أشد مما كان ، وأشيع فى ٢٦ سبتمبر أن البابا توفى ، وأرسل بعض السفراء هذا النبأ لدولهم . فتسلح أهل روما انتظاراً لما سيحدث من اضطرابات فى المدينة بين وفاة البابا وانتخاب آخر . وحاول ابن البابا غير الشرعى — فرانشسكو تشيبو — أن يضع يده على خزائن المال البابوى ، وأن يخطف الأمير جم أسير والده الذى كان يقيم عندئذ فى القصر البابوى ، ليبيعه لملك نابولى . ولكن الكرادلة كانوا يقظين فلم تتم هذه المحاولة . وظهر أن البابا لم يمت وإنما غشى عليه ، ثم بدأ يتمالك صحته على ما به من ضعف كبير . وتمكن من السفر إلى بلدة أوستيا الساحلية للاستشفاء وعاد منها ولم يزل المرض يلازمه . وكان بعض الأمراء قد سعوا إلى الصلح بينه وبين ملك نابولى فتم ذلك ، ولكن حالة البابا كانت تدل على أنه لا يعيش طويلا . وفى ٢٥ يوليه من سنة ١٤٩٢ توفى البابا ، وكان على أمراء الكنيسة أن ينتخبوا من يشغل عرشه .

وهكذا ارتقى هذا العرش إسكندر السادس بورجيا ذلك البابا الأسبانى الذى كان يتصرف فى مركزه الدينى تصرف الأمير ، لا يهتم فى سياسته إلا بالأمور الدنيوية فى توطيد مركزه الكبير دون الرسالة الروحانية والمقام الدينى ، بل كان يتخذ من هذه الرسالة وهذا المقام وسيلة لتحقيق أطماعه كملك يريد الدنيا ويعمل لها . فكانت مساعيه ترمى إلى زيادة نفوذه، وتمكين أولاده غير الشرعيين الذين كان يجاهر بهم ، من اقتطاع عروش لهم من أرض الأمراء الايطاليين ، فكان لا يتردد فى استعمال كافة الأسلحة التى عرفها ذلك العصر من خناجر وسموم فى محاربة خصومه والقضاء عليهم أو فى إزالة أصدقائه إذا كان من وراء ذلك تحقيق مطمع له .

ولقد وجد فى تركة سلفه جوهرة ثمينة تدر عليه الخيرات والنعم ، هذه الجوهرة هى الأمير جم الذى كان أخوه يدفع مبلغاً كبيراً فى كل سنة لكى يظل أسيراً لا يفلت من يد ساجنه . وكان البابا إسكندر السادس خير سجان . فليس له من ضميره ما يجعله يتردد فى هذه المهمة الثقيلة . ولذلك تلقى البابا تهانى

٨٠ أمير تركى فى قصر البابا

بايزيد بالترحاب وقوبل رسله مقابلة عظيمة ، وأفهموا فى التو أن البابا حريص كل الحرص على أسيره ما دام يتلقى المال السنوى الذى يدفع فى سبيل الاحتفاظ به . بل لقد تسلم البابا أول دفعة منه ، وقيل أكثر من ذلك إنه عرض عليه أن يسلم الأمير جثة فى سبيل مال مضاعف .

وعاد الأمير جم كما كان دائماً مطمح أنظار البابا وخصومه ومدار النزاع فى روما ؛ فقد حاول الأمراء الذين يناوئون البابا ، كأمراء أسرة كولونا ، أكثر من مرة أن يستولوا على شخص الأمير ودبروا المؤامرات لذلك ، ولكنهم لم يفلحوا . ذلك لأن البابا كان حريصاً كل الحرص على أن يحتفظ بكنزه الثمين . وكان الأمير فى الوقت نفسه قد بلغ منه اليأس مبلغاً وصار لا يعتمد على المجادلات والمؤامرات للتخلص من موقفه ، بل انصرف إلى الملذات والشراب والنساء واستولى عليه الخمول . وكان بلاط إسكندر السادس مما يشجع على الانصراف إلى مثل هذه الملاذ .

وكان البابا إذا ما وقع فى مأزق من خصومه نقل الأمير معه إلى مأمن كأثمن ما يمتلكه . وذلك ما فعله عند ما حاربه شارل الثامن . حتى إذا وضعت شروط الصلح بين ملك فرنسا المنتصر وبين البابا فى ١٥ يناير سنة ١٤٩٥ ، نص فيها على أن يسلم الأمير التركى إلى فرنسا على أن يحتفظ البابا بالمال الذى يدفع له سنويا فى سبيله .

ولكن قدر ألا يسلم هذا الأمير ليد سجان آخر ؛ فقد توفى فجأة فى ٢٥ فبراير سنة ١٤٩٥ وفى مثل هذه الأحوال وفى مثل تلك الأيام كانت هذه الوفاة الفجائية تعزى دائماً إلى السم . فهل نفذ البابا إسكندر السادس ما وعد به بايزيد ، أو ما قال خصومه إنه وعد به بايزيد ؟ ذلك ما يعتقده بعض المؤرخين ، وإن كان البعض الآخر يرى أن هذه الوفاة نشأت عن انصراف إلى اللهو والغماس فى المجون .

حسنى محمود